لورانس مورافيا: ألواس موزيل

أرنست غيلنر

ترجمة أبوبكر باقادر

يعرف ألواس موزيل (1868 ـ 1944) عند الأنثروبولوجيين الغربيين فقط بوصفه مؤلف كتاب «أخلاق وعادات بدو الرواله»[1] (1928). فالدراسة المذكورة تمثّل الأثنوغرافية المعيارية وربما الأفضل لبدو شمال الجزيرة العربية التي استخدمت بشكل واسع (مع الاعتراف بالاعتماد عليها) من قبل من كتبوا لاحقاً عن هؤلاء البدو، كما هو الحال مثلاً فيما كتبه (مايكل ميكر) في كتابه «الأدب والعنف في شمال الجزيرة العربية»[2] (1979). وكذلك الدراسة المهمة المتأخرة التي أنجزها عن الرواله (وليم لانكستر) «بدو الرواله اليوم»[3] (1981). لكن فيما عدا ذلك فإنه لا يعرف سوى القليل وربما لا شيء في الغرب عن موزيل. ولقد نشر مؤلفان نمساويان سيرتين له، هما إريك فايغل «موزيل العرب: رائد في مجال دراسات العالم الإسلامي»[4] نشر في برلين (1988)، وكارل يوهانس باور: «ألواس موزيل: الباحث عن الحقيقة في الصحراء»[5]، نشر في فيينا (1989). وهناك بعض الكتابات باللغة التشيكية عنه، وعلى وجه الخصوص بعض المقالات التي تناولت سيرته الذاتية وقائمة بمؤلفاته ظهرت بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده عام 1968، وهو عام كانت

---

(1) The Manners and Customs of the Rawala Bedouins.

(2) Literature and Violence in North Arabia.

(3) The Rawala Bedouin Today.

(4) Musil von Arabia, Vorkämpfer der Islamischen Welt.

(5) Alois Musil: Wahrheitsucher in der Wüste.

قد وقعت فيه مع ذلك أحداث أكثر دراماتيكية في براغ، مما أدى إلى حجب الاهتمام بالاحتفالات بمساهمات موزيل.

والسيرتان اللتان كتبتا بالألمانية ليستا مستقلتين إحداهما عن الأخرى تماماً، فلقد نشر فايغل، وهو صحفي، كتابه أولاً لكنه يعترف بمساعدة وعون باور، المختص في التاريخ، والذي قدم مؤلفه في البداية كأطروحة عام 1985 وتم نشرها بعد ذلك في شكل كتاب. ويتطابق المجلدان إلى حد كبير سواء فيما يتعلق بالمادة العلمية المعتمدة أو تفسيرها. على أن أسلوب كتابة باور وما أورده من صور وما استخدمه من منهج علمي كان الأفضل. أما ما قدمه فايغل من خرائط لرحلات موزيل فهو أكثر وضوحاً، ثم إنّ حجم كتابه صغير مناسب للحمل في الجيب. ولا يظهر أن أياً من المؤلفين ملم بشكل جيد باللغة التشيكية، وعلى ما يظهر ربما كان هذا الإلمام ضرورياً، وإن لم يكن شرطاً لتفسير أفكار وأطروحات موزيل.

وحقيقة أن ألواس موزيل غير معروف على نطاق واسع أمر غريب، خاصة أنه كان واحداً من ألمع رجال عصرنا، وكانت حياته مهمةً للغاية لعالمنا وبطرق عديدة ومختلفة. فلقد كان أولاً وقبل كل شيء وبشكل درامي، وإن لم يكن ربما في النهاية بشكل مهم جداً، المعادل لـ (تي. إي. لورانس) في الجانب الآخر في الحرب العالمية الأولى، إذ كان مع قوى المحور. وربما كان جندياً أكثر فعالية ونجاحاً من لورانس، وليس ذلك لأنه حصل على مرتبة عسكرية أعلى ـ ماجور جنرال، أو فيلد مارشال ـ وإنما لأنه أنجز أكثر بوسائل ودعم أقل. وكان موزيل يهدف إلى إيقاف قبائل شمال الجزيرة العربية وشيوخها عن محاربة بعضهم البعض أو محاربة الأتراك، وإن كان ممكناً أن يجعلهم يقاومون الإنجليز وحلفاءَهم. وفي هذا الأمر يظهر أنه قد نجح، فحقيقة أن الترك بقوا في المدينة حتى نهاية الحرب، وحقيقة أن القطارات الصغيرة كانت تمخر طريق سكة حديد الحجاز (وإن تعرضت أحياناً للتخريب من طرف رجال لورانس)؛ وحقيقة أن نجاحات لورانس جاءت متأخرة في الحرب ولم يكن لها تأثير كبير على نتائجها ـ كل هذا إنما يؤكد على نجاح

موزيل. ولقد كان الرجلان يعرفان أحدهما عن الآخر. فقد لاحظ لورانس أن هناك أشياء غريبة تقع، وأن نمساوياً ما، كما وصف له، كان يقوم بنصح القيادة التركية العامة في دمشق. ولقد أضاف لورانس ساخراً إنه يأمل أن يكون الترك استفادوا من تجربة موزيل أفضل مما أفاد الإنجليز من تجربته.

وحانت الفرصة لموزيل أن يعبر عن آرائه في لورانس عام 1935 في برنامج إذاعي تشيكي، بعد أن قتل لورانس نفسه من فوق دراجته النارية. ولقد كان عنوان المقابلة الإذاعية يحتوي على كلمة «الأسطوري» ولم يكن استخدام هذه العبارة غير نقدي: ويلاحظ فايغل أن المقابلة تنفي وجهة النظر الذائعة الصيت التي تقول إن المراثي ليست على الإطلاق صادقة. ويقتبس باور من هذه المقابلة بشكل واسع. إذ يشير موزيل إلى عدم تمكن لورانس من إجادة العربية، وإلى حقيقة أنه رغم تكوينه الفيلق الأيمن للجيش (البريطاني) في فلسطين وشرق الأردن، إلا أنه لم يضع قدمه قط في شبه الجزيرة العربية وأنها كانت مجهولة تماماً له، وأن الذهب وليست كاريزما خاصة به هي ما ضمن له الأتباع، وأنهم هجروه حالما توقف مدد الذهب. ولم يمدح موزيل وبشكل واضح خصمه الذي اشتهر أكثر منه. لكنه كان يحترمه كثيراً ككاتب، وأنه في مضماره أو جنسه الأدبي ـ الذي لم يعرفه ـ لا يوجد له مثيل منذ الحروب النابوليونية.

فمن كان إذن هذا «النمساوي» الذي قام بكل هذه الأعمال الجليلة ولكنه رغم كل ذلك بقي مجهولاً، بينما أصبح لورانس أسطورة، وكيف تمنعت عليه الشهرة؟ إنها قصة مثيرة ومهمة.

لم يكن ألواس موزيل نمساوي الأصل، لكنه طالما بقيت الإمبراطورية كان مواطناً بارزاً يكن ولاءً بل احتفاءً شأن الوطني المخلص لأسرة الهابسبورغ. فلقد كان ابن فلاح مورافي، من صغار مالكي الأرض من أبناء الطبقة الوسطى، كما توضح ذلك شجرة العائلة والتي يمكن تتبعها إلى بداية القرن الثامن عشر. وتوجد إلى يومنا هذا أشجارٌ في حديقة بيت العائلة الذي يقطن فيه الآن آخر أبناء إخوة ألواس موزيل المسنين. وتشتكي زوجة ابن

الأخ هذه بمرارة من أن محصول التفاح لم يبع بسبب وجود تفاح مستورد يباع في السوق، ولذلك فهو يملأ غرفة المعيشة. ولقد كان ألواس موزيل ابن عم لروبرت موزيل الكاتب المشهور الذي أبدع رواية «الرجل الذي بلا سِمات»[1]. ولقد كان الرجلان يعرفان بعضهما وتراسلا، وهناك علاقة لافتة بين الرجل الذي كتب بسخرية عن «كاكانيا»، إذ سمى روبرت الإمبراطورية النمساوية بذلك ساخراً، وبين الرجل الذي حاول أن يحميها. ويظهر أن معظم حياة ألواس تبدو كما لو أنها تخرج مباشرة من ثنايا رواية روبرت العظيمة. لكن فرع أسرة روبرت موزيل ـ وإن اشترك الرجلان في الجد ـ قد ارتقى إلى عالم الطبقة الوسطى، مما جعلهم يحصلون على لقب «von» في هذه الأثناء (وإن لم يسعَ روبرت إلى استخدام اللقب)، بينما بقيت أسرة ألواس تعمل على الأرض كفلاحين، رغم أنهم فلاحون ميسورون. ولقد لاحظ ألواس، الذي كانت لديه مشاعر شعبوية، مؤخراً في حياته أن الأمة تعتمد على فلاحيها، فهم قريبون من الأرض. وكان ارتقاء فرع أسرة روبرت على وجه الخصوص يعني الاندماج في الثقافة الألمانية، بينما بقيت أسرة ألواس تشيكية وبشكل عميق ثقافةً وروحاً.

دخل ألواس، كمعظم أبناء الفلاحين في المنطقة، سلك الكنيسة. وكان قد قرر الاستمرار على هذا المسار كطالب في المرحلة الثانوية.. وكانت وجهته جادة، وكانت رسالته أن يصبح كاهناً، وكذلك أن يكون متديناً، ولقد كانت هذه الرسالة هي التي قادته، بشكل غريب، إلى الوصول إلى مرتبة وإنجاز عسكري عالٍ. ورغم أن أيام الفرق الدينية العسكرية وكذلك أيام الرهبان ـ العسكر قد ولت ومنذ زمان، لكن الصلة بين المجالين مثيرة، فلقد كان التدين هو الذي دفع إلى الاهتمام بالفكر والمعرفة وذلك بالتالي أثبت أن له قيمة عسكرية. ولقد كان قدوة موزيل الأولى في الكنيسة البطريرك كوهن أولوموش، المشهور وهو مثل موزيل نفسه ينتمي إلى خلفية مورافية ريفية ساذجة، لكنه كان يهودياً اعتنق المسيحية ورفض أن يستسلم

(1) The Man without Qualities.

لموجة العداء للسامية بأن يغير اسمه. ولا شك أن القصة الكنسية التي كانت واسعة الانتشار، التي تقول بأن فرانس جوزيف عندما وقّع إعلان أو قرار تسمية كوهن بطريركاً، سأل وبقلق: (هل عُمِّد على الأقل؟) ولقد أجبر كوهن لاحقاً على الاستقالة من طرف البابا. أما موزيل فقد اتّهم بالابتداع في عقيدته.

إن ابن الفلاح الذي أصبح رجل دين كانت تشغله قضية لاهوتية هي: الوحدانية. ولقد بقي هذا الاهتمام موضوعاً مسيطراً عليه طوال حياته. ولما أقام بين العرب، اختار أن يسمي نفسه موسى، ويسمي منزله في الأراضي التشيكية فيلا موسى. ربما أكّد له إيمانه صدق الوحدانية، لكن هذا لم يمنع حب استطلاعه وتنظيره الاجتماعي عن السؤال عن أصولها الاجتماعية. ولقد قاده علم اللاهوت إلى العهد القديم، والاهتمام بمجتمع العهد القديم قاده إلى تعلم العبرية ومنها إلى تعلم العربية، وأن يهتم بكل من السياق الجغرافي لأحداث العهد القديم والمجتمعات التي سكنت المنطقة في عصر موزيل نفسه. لم يكن كل هذا مجرد حب استطلاع: إذ أصبح موزيل على قناعة أن الصحراء تقدم الدليل على أصل الوحدانية بل وحتى على صيانتها. لم يتحوّل الرعاة الرحل إلى الوحدانية، وإنما كانت روحهم وأسلوب حياتهم هي التي أنجبتها.

ولقد استكشف كدارس للعهد القديم تضاريس الكتاب المقدس. وهكذا أصبح، على سبيل المثال، على قناعة أن جبل سيناء الحقيقي يقع في مكان ما شرق العقبة، وأنه عبارة عن تل بركاني، وأنه لا يقرب أو يرتبط بأي صلة مع الجبل الذي يطلق عليه هذا الاسم الآن. ويظهر أن هذا منطقي نوعاً ما: فأصحاب موسى الذين هربوا من مصر من غير المعقول أن يصعدوا جبلاً جافاً ومرتفعاً يقع في طريق العودة إلى مصر، والموقع الذي يقع غرب خليج العقبة يظهر كما لو أنه الموقع الأكثر معقولية. وفي نفس الوقت الذي كان مالينوفسكي فيه مستغرقاً في أفكار أرنست ماخ الفلسفية، التي ساعدته لاحقاً في تحويل الأنثروبولوجيا من حقل معرفي يقوم على حدث ـ تاريخي ـ جيني

(وراثي) إلى حقل معرفي آني ـ اجتماعي، كان ألواس موزيل وبشكل مشابه يمر بتحول من اهتمام بصحراء الجزيرة العربية بوصفها المكان الذي جرت فيه أحداث العهد القديم، إلى اهتمام بسكانها الحاليين: وظلت في مركز اهتمامه جذور الوحدانية في التجربة الاجتماعية بدلاً من الوحي. لقد كانت نفس الحركة الفكرية: الدور الاجتماعي وليس الأصل التاريخي هو الذي يقدم الشرح، ولكن ألواس موزيل مارس فقط هذه الرؤية، دون تحويلها إلى نظرية. لقد كان يتهم بالفعل بإنتاج وصف ذي نزعة طبيعية للمعجزات الواردة في الكتاب المقدس. وقد درس ألواس موزيل، مثل مالينوفسكي أرنست ماخ لتحضير رسالته للدكتوراه: يا له من عالم صغير!

إن الخبرة المكتسبة أثناء محاولة فهم كل من العهد القديم والمجتمع البدوي ـ وعلى افتراض تشابه الموضوعين ـ قد أدّت إلى نتائج دنيوية. فلقد كان الأمير سيكستوس أمير بوربون ـ بارما (الذي كانت أخته زيتا زوجة ولي العهد وبعد 1916 أصبحت آخر إمبراطورة نمساوية) متشوقاً للقيام برحلة مغامرات إلى الشرق الأوسط؛ وإن كانت نسبة الرومانسية إلى تحقيق تأثير سياسي مسألة مفتوحة للتأمل والتخمين. وكان الأمير اسمياً، وإن كان باسم مستعار، رئيس البعثة. لكن البعثة أو الحملة كانت بحاجة إلى مرشد وقائد/ عالم محل ثقة، ومن كان أكثر مناسبة من الرجل الذي أصبح مشهوراً في تلك الفترة كمستكشف وعالم؟ ولقد حاول البريطانيون أن يجندوه لصالحهم أكثر من ثلاث مرات. ولو أنه وافق على العروض البريطانية، لربما أصبح فعلاً، ليس المقابل النمساوي للورانس، وإنما لورانس نفسه. وبحلول عام 1906 أصبح موزيل، وبكفاءة، مستكشفاً وراسم خرائط لجزيرة العرب يطلب منه وزير الخارجية البريطاني، السير إدوارد غراي، أن يرسم الحدود بين مصر الواقعة تحت الاحتلال البريطاني وفلسطين العثمانية. ولقد استجاب موزيل لذلك الطلب، وباستجابته تلك تسبب في إلحاق بعض الأضرار لاحقاً في هذا القرن: فلقد بنى الإسرائيليون فندقاً في الجانب الغربي من إيلات (وهي منطقة سياحية لم تكن بالتأكيد موجودةً في زمن موزيل). وادعى المصريون أنها تقع داخل حدودهم، وأثبتت خريطة موزيل

صدق موقفهم[1]. فقبل موزيل، لم تكن هناك بطبيعة الحال حدود واضحة.

لكنه لم يجند مع البريطانيين في الحرب، وبدلاً من ذلك، وبسبب صلاته القائمة آنذاك مع البلاط الهابسبورغي، أصبح مبعوثاً سامياً في البلاط. ومع الوقت كانت هناك همسات حول تأثير رجل الدين النمساوي ذاك. وبالفعل كان هناك، في ذلك الوقت، مطرانان كاثوليكيان، مرتبطان أحدهما بالآخر ولهما نفس الموقع: موزيل وصديقه وزميله العالم باتر شميدت، رئيس شعبة الأنثروبولوجيا النمساوية، والذي شغل بالوحدانية أيضاً والمعروف بسبب أفكاره أو آرائه المتعلقة بالوحدانية بوصفها الدين الأصلي للبشرية، وأنها فقدت أو تلوثت بسبب نوع من التطور التحللي للدين. ولقد جمع هذه الآراء مع نوع من نظرية تقوم على القول بانتشار الوحدانية من مركز بابلي. ولقد كان الأب شميدت بطبيعة الحال سعيداً بدراسات ألواس موزيل الإثنوغرافية والتي اعتقد على ما يظهر أنها تؤكد آراءه العامة.

ولاحقاً حينما كانت هناك تلميحات قاسية/مريرة عن راسبوتين الهابسبورغ، لم يكن من الواضح تماماً من كان المقصود موزيل أم شميدت، وربما قصدا معاً، لأنهما كانا يعملان بانسجام معاً. وهناك شيء محير عن ألواس موزيل بأن يوصف بذلك: فرجل الدين هذا الناضج والعامل الدؤوب والمتطهر والمنجذب بقوة للطهورية وأشكال الإيمان التي لا تعتمد على الوسطاء، أبعد ما يكون عن رجل الله المتوحش والمشوش الفوضوي من نوع ما كان موجوداً في البلاط القيصري. لقد قدم راسبوتين إسهاماً مهماً في تدمير إمبراطورية آل رومانوف، بينما عمل موزيل الكثير من أجل حماية إمبراطورية الهابسبورغ. وبتأسيسه شخصياً «سلاماً نمساوياً» في الصحراء بين فلسطين وسوريا والعراق، حمى أجنحة الفيالق التركية المضادة للبريطانيين القادمة من البصرة ومصر. ولقد كانت السياسة القبلية في تلك الفترة في غاية التعقيد،

(1) هنا يظهر الجانب الذي ينتمي إليه ويتعصب معه غيلنر Gellner، فهو يرى كما هو واضح من النص أن حق إسرائيل ثابت وحق المصريين مجرد ادعاء وغلطة تاريخية ارتكبها موزيل!

وإن أصبحنا على دراية بقدر كبير منها بسبب نشاط علماء وباحثين من أمثال جون كيلي ومضاوي الرشيد وجوزيف كستنر. بل إن موزيل فكر في غزو بدوي لمصر عبر صحراء سيناء، وهذا الغزو كان يمكن أن يكون نوعاً من صورة مطابقة لهجوم لورانس لاحقاً على دمشق. ولقد كانت إنجازاته رغماً عن الأتراك، وليس بمساعدتهم: فلقد كرهه ولم يثق به أنور باشا وسعى إلى تعطيل جهوده. ومن وجهة نظره، ربما كان على حق: فلا يظهر أن موزيل كان حريصاً لا على الأتراك أو على البروسيين، إذ كان يتصور نوعاً من شرق أوسط نمساوي ـ عربي. وكما هو واضح من توثيق كتاب باور، فهو لم يمانع في أن يكذب على الألمان في تقاريره، حتى يضللهم فيما يتعلق بالحالة في الجزيرة العربية. وهذه الازدواجية كانت متبادلة. ففي الوقت نفسه، يظهر، كما يذكر موزيل في كتابه باللغة التشيكية «مع شمر» (1931)[1]، طلب أنور باشا، من موزيل، أن يقوم بالتفاوض من أجل السلم بين آل الرشيد في حائل والسعوديين، ولقد قام بتوجيه آل الرشيد بالاستمرار في محاربة السعوديين بوصفهم حلفاء للبريطانيين وبوصفهم خونة.

ولقد كان موزيل قريباً من الأحداث الواقعة في الحرب المعقدة بين أشباه ـ الدول القبلية المختلفة، وبالذات الحرب القائمة بين شمر وآل سعود. ويقدم وصفاً تفصيلياً عن وفاة عميل بريطاني ارتبط بالسعوديين، اعتماداً على تقرير رفع إليه مباشرة من الأسود (كما وصفه) إبراهيم الندلي:

«لقد أخذت هذا المسدس من رجل إنجليزي عند الظهراب (Adzhrab). له قبعة بيضاء كبيرة وأطلق النار من بندقية. لقد أطلق سبع طلقات لكن أي منها لم توقع خسائر أو أضراراً.. فقد سقطت في الرمال دون أن تنفجر.. ولقد رمينا أنفسنا على استحكامات دفاع البندقية وتمكنّا من طردها: ولم يهرب الإنجليزي وإنما بقي والبندقية إلى اللحظة الأخيرة. وعندما وجد نفسه وقد ترك وحيداً نظر إلى حصانه، لكن حصانه أخذه المدافعون معهم عند هروبهم. لذلك بدأ في الجري على رجليه وكان يغطس في الرمال. فطاردته

(1) Mezi Sa mary.

من على ظهر مهرتي.. لكن فجأة وجهت إلي طلقة، فسقط مهري (فرسي) وسقطت معها. وتبعت الإنجليزي على القدمين. لقد كنت متعوداً على الرمال ولم يكن هو متعوداً عليها وكنت حافي القدمين وكان هو يرتدي حذاء طويلاً يتعدى الكاحل. وحالاً تمكنت من القبض عليه. توقف والتفت ورفع يديه إلى رأسه، مبتسماً، فأطلقت عليه النار وضربته على جانبه فسقط على ركبتيه، ورفع يديه مرة أخرى... فسللت سيفي وقطعت رأسه. لقد كان عمره يقرب من أربعين عاماً ولقد أرسل سعود بن سبحان ملابسه وقبعته إلى المدينة المنورة».

والعجيب في الأمر أن موزيل يكرر القصة المحزنة دون تعليق.

ولم يسمّ موزيل الرجل الذي تشبث ببندقيته، وهجره رفاقه (بعد أن سرقوا حصانه)، وقتل وهو يبتسم من قبل من أسره وهو يرتدي قبعته البيضاء. لكن من الواضح أن هذا الشخص كان الكابتن شكسبير، العميل الذي ارتبط بالسعوديين في ذلك الوقت. ويظهر أن هذه الحادثة قد وقعت يوم 22 يناير 1915، ولقد كتب عنها موزيل تقريراً مباشراً أول مرة إلى فيينا في رسالة إلى البارون بوريان، وزير الخارجية الجديد. والتقرير أرسل في 27 فبراير 1915. وما يظهر أنه تقرير عن نفس الحادثة قد أرسل أيضاً يوم 28 يونيه للسفير الألماني في اسطنبول، والتقرير الآن موجود في الأرشيف الألماني في بون الذي يخص الحرب العالمية الأولى. وفي هذا التقرير كان موزيل مهتماً بالتقليل من شأن أهمية هذه المعركة الصغيرة: لم يكن هناك انتصار لآل الرشيد على السعوديين، وإنما انتصار لحفنة من شمر كانت قد انحازت للطرف الثاني ولم يكن الإنجليز طرفاً في ذلك، والإنجليزي الذي استخدم البندقية سيء الحظ، بحسب ما كتب «ربما كان هولندياً من سكان باتافيا (جاكارتا في أندونيسيا)، وهو مجرد مرتزق من المرتزقة كان يخدم فيصل بن الرشيد». ويقول بشكل واضح في هذا التقرير، أنه كان حاضراً أثناء المعركة في الظهراب، الموقع الذي وصف سابقاً لوفاة الضابط الإنجليزي. ويشير الإنجليز إلى هذه المواجهة بمعركة الجراب Jarrab. ولسبب ما، كان مهماً

لموزيل أن لا يشجع الألمان على التفكير بتورط الإنجليز وأن السعوديين قد هزموا. ولقد أعاد باور نشر التقريرين، لكن بدون التعليق على حقيقة أن هذه التقارير تشير إلى نفس الحادثة أو ملاحظة وجود تناقض مقصود بينهما، أو مناقشة الدوافع الممكنة خلف ذلك.

ونشاط موزيل في الصحراء، رغم أهميته ودراميته، إلا أنه لم يشكل محاولته الأبرز له لتغيير مسار تاريخ القرن العشرين وحماية الإمبراطورية. والواقعة أو الحادثة التي تسجل أعلى نقطة لتأثيره، والتي بطبيعة الحال تشكل الاهتمام الأكبر بالنسبة للنمساويين، هي المحاولة السرية من طرف الإمبراطورية النمساوية وأسرتها الحاكمة أن تحمي نفسها عن طريق عقد سلم منفصل أو منفرد. فشقيق الإمبراطورة، الذي كان موزيل دليله في الصحراء، كان أيضاً من البوربون (ولقد كان واعياً بشكل قوي، كما ذكر في رسالة إلى موزيل، أن في أسلافه هناك ما لا يقل عن ستة وخمسين حاكماً مستقلاً ـ وإن كان الواحد منا ربما لم يفكر بإمكانية وجود تيجان وفترات حكم كافية لكل هذا المعدل الكبير، لكن ربما الإمارات الصغيرة المستقلة في إيطاليا قد تجعل هذا ممكناً)، ولقد كانت له مكانة رفيعة عبر اتصالاته، كافية لأن يبعث إشارات للحلفاء حول إمكانية عقد اتفاق سلام منفرد معهم، قد يحمي الأسرة الحاكمة. لقد كانت عملية في غاية الحساسية والدقة لأسباب واضحة: لقد كانت الفكرة الأساسية هي حماية العرش الدانوبي من التفكك، عن طريق خيانة الحلفاء الألمان والأتراك. وفي عبارات صارخة، كان الاقتراح للحلفاء كالتالي: أن تدعوا إمبراطورية هابسبورغ تستمر في حكم وادي الدانوب، وأن يبقى للفرنسيين إقليم الإلزاس ـ واللورين، وبإمكان الروس أن يأخذوا اسطنبول. وفي رسالة ربما تشكل دليلاً مساعداً على موافقة موزيل على ذلك، ملاحظته أن ضياع اسطنبول سوف لن تكون له آثار مدمرة على الترك أكثر من خسارتهم للأماكن المقدسة في الحجاز.

لكن بوانكاريه آثر أن لا تبقي هذه الإشارة سرية: فما أن خرجت أو وصلت، حتى تمّ التنكر بطبيعة الحال لهذه المبادرة. ولم يكن الأمر فقط أن

الخيانة لا تنجح قط، لأنها لو نجحت فإن أحداً لن يتجاسر ويسميها بذلك ـ والحالة كذلك لو أنها فشلت فإن أحداً لن يعترف بأنه حاول ذلك. ولما كان الأمر على هذه الشاكلة، فإن ما حدث فعلاً، موضع اختلاف وتخمين بين المؤرخين: فلقد عاشت الإمبراطورة زيتا أخت صديق موزيل، ورفيق سفره، الأمير سيكتس، لفترة طويلة مكنتها من أن تكون لها فرص عديدة للتعليق على هذه المكائد، لكنها ناقضت نفسها بشكل كبير، كما يلاحظ باور، حتى أصبحت شهادتها لا قيمة لها، ودفعت للشك ـ إلى يومنا هذا ـ أن هناك محاولةً ما لتشويه الحقيقة.

ويظهر من ناحية أخرى، أن شهادة موزيل واضحة وبسيطة: كان من الواضح بحلول عام 1917 سواء للإمبراطور الجديد كارل أو لموزيل نفسه، أن الحرب كانت خاسرة وأن شيئاً من هذا تجب محاولته. ولقد حرر موزيل بعض الرسائل الحساسة المتعلقة بهذه المسألة. ولقد كان رجلا الدين في البلاط المنظرين الرائدين فيما يخص الوحدانية والبحث الميداني، وقد دفعهما هذا الاهتمام ليس فقط إلى تقديم عون حاسم على الأرض على أجنحة أو جوانب الجبهات العراقية والفلسطينية، وإنما دفعهم أيضاً لممارسة دبلوماسية الحرب السرية.

إن هذا الخليط من البحث العلمي الراقي والمجتمع الراقي والسياسة الرفيعة المستوى، وجميعها في خدمة حماية الثقافة والسياسة النمساوية ـ الهابسبورغية، هي ما جعلت حياة موزيل تظهر كما لو أنها خارجة مباشرة من ثنايا رواية ابن عمه روبرت. فالرجلان وإن عرف أحدهما الآخر وتراسلا، إلا أنه من الصعب أن لا نشك أن الاحتفالات والمكائد التي نجد لها وصفاً في رواية «الرجل الذي بلا سمات» كانت بالفعل قد استلهمت من جمعية ألواس الاستشراقية، التي تأسست من أجل الترويج للتأثير النمساوي، ومن أجل التجارة والثقافة في الشرق: ولقد شملت اللجنة المؤسسة كل رجالات فيينا من أمثال: ولي العهد وعمدة فيينا والبارون فون شكودا صاحب مصانع شكودا المشهور ومن كانوا على شاكلتهم. ونجد هنا كل العناصر المصاحبة للحملة

في الرواية.

لقد فشل موزيل في كل مخططاته الكبرى: لم يتم التنظيم لعقد سلم منفصل كان يمكن أن يحمي الإمبراطورية الهابسبورغية، وفي الوقت الذي تمكن فيه لورانس وأعرابه في النهاية من الوصول إلى دمشق، فإن موزيل لم يصل قط لقناة السويس. حقيقةً أن التاريخ قاس على من يخسرون إنما يشكل ذلك جزءًا فقط من تفسير عدم شهرة موزيل، ففي الوقت الذي حصل فيه لورانس على دعاية وشهرة حقيقية، رغم أنه كان يتظاهر بأنه يهرب منها (وهو ادعاء لا ينافسه فيه سوى زميل موزيل النمساوي، فتغنشتاين)، نجد أن موزيل في أواخر حياته تجنب حقيقةً الشهرة، واعتزلها مفضلاً البحث العلمي والفكر. ورغم أن خرائطه ودراسته الإثنوغرافية عن الروالة صدرت بالإنجليزية، إلا أن وصف مغامراته نشر فقط باللغة التشيكية، ولهذا بقي مجهولاً من القراء في العالم. ولقد كتبت هذه المغامرات بأسلوب مباشر، ولم ينكر سياقها السياسي ـ العسكري، رغم أنه كان واضحاً وبشكل كاف، بصورة صريحة مباشرة: فقد ذكرت الرحلات بشكل واضح جلي، وقدمت بشكل تحريضي استفزازي دون أي تفسير عن لماذا كان هو هناك أصلاً. لقد كانت لكثافة أسلوب لورانس القاتلة جاذبية أدبية، أما بساطة أسلوب موزيل ـ ولقد مارس البساطة عامداً إضافةً إلى تقديره لها ـ فأدت في النهاية إلى معاملته كما لو كان مجرد كاتب مغامرات أسفار عادي بالنسبة للشباب التشيك. وفي الواقع فإنّ حياة موزيل كانت تنتمي لنهاية القرن (fin de siècle)، لكن أسلوبه لم يكن فيه غموض قاتل، ويصعب أن نجد جملة واحدة فيما كتب ليست بسيطة وواضحة.

وهكذا ورغم جهود موزيل، سواء في الصحراء أو في الدبلوماسية السرية، لم تبق الإمبراطورية الهابسبورغية، وإنما على العكس من ذلك تمزقت، ويلوم فايغل الحكومة الأولى ذات الاتجاه الإثني الشوفيني الجمهوري الضيق، التي قامت مباشرة بعد الحرب العالمية الأولى، والتي ساعدت على طرد موزيل من النمسا ومن فيينا، بإصدار قرار يسهل طرد كل

الموظفين من «غير النمساويين الألمان» من الخدمة الحكومية. لم تكن هناك نوايا في تطبيق القرار على موزيل، لكن ليس من المدهش إذا ما أخذنا في اعتبارنا إنجازاته، أن يرفض موزيل أن يقوم بتعبئة أي أوراق يطلب فيها الإعفاء أو أن يرى مكانته وقد قلّل من شأنها. ويتّهم فايغل هذا القرار، بوصفه قراراً يتوقع بل حتى يتعدى قوانين نورمبرغ الهتلرية، في تحمسها في تحديد فرص التوظيف في النمسا الجديدة القاصرة على النمساويين الألمان. ولقد تمنى العلماء في فيينا أن يبقى، بينما أمل العلماء في براغ أن يعود إليهم. وبغض النظر عن عوامل الجذب والطرد حول عودته، فإن براغ هي التي انتصرت في النهاية. لكن مع ذلك، سمع اعتراض في البرلمان التشيكو سلوفاكي الجديد عام 1919، ضد تعيين الرجل الذي قام بخدمة الجانب الآخر وبتميز. لكن كان لموزيل أنصار أقوياء، على رأسهم الرئيس توماس مازريك T. Mazaryk نفسه.

وهناك مفارقة عظيمة في ذلك: ففي الوقت نفسه الذي كان فيه موزيل يعمل على حماية أسرة الهابسبورغ الحاكمة، على مستويات أخرى مختلفة تماماً كان مازريك يقوم بأقصى جهده لتدميرها. ولقد كانت استراتيجية مازريك أن يقنع الحلفاء بأهمية المساهمة التشيكية في الحرب، وذلك حتى يضمن لها الاستقلال كمكافأة، ولو أن موزيل فقط كان قد استجاب إيجابياً للعرض البريطاني وكان فعالاً في صفهم كما كان فعالاً في الجانب النمساوي، عندها كان مازريك، دون شك، سيشيد بإنجازاته. ولكن لما كان الأمر على ما هو عليه، فإنه كان من المفروض التقليل من أهمية إنجازاته، وهذا، بالإضافة إلى بساطة أسلوبه الأدبي، يفسر لماذا لم يشتهر موزيل. ولكن ورغم انخراطه في الجانب الخطأ، فإن وزير الخارجية التشيكي فكر في اصطحابه معه إلى مفاوضات فرساي، لكنه تخلى عن ذلك في ضوء اعتبار أن البريطانيين قد يعتقلونه؛ وإن كان ذلك غير منطقي أو مقبول. فلم يكن موزيل مذنباً بجرائم حرب، وهل كانت للبريطانيين القوة أو النية في اعتقال أعضاء الوفود الحليفة إلى فرساي؟

وكان مازريك، في هذه المناسبة وسواها، كريماً وفعل أقصى ما بإمكانه لمساعدة موزيل بعد الحرب: إذ بالإضافة إلى المساعدة في تأمين كرسي الأستاذية للغة العربية بجامعة تشارلز، فإنه قدم موزيل أيضاً لتشارلز روبرت كرين، الراعي الأمريكي لهذه المنجة التعليمية (وبالمناسبة فإن أسرة السيد كرين قدمت لمازريك زوجة ابنه الأمريكية، فهم أصهاره)، ولقد أدى هذا إلى النشر الأمريكي لواحد من أهم كتب موزيل، وهو الكتاب الذي كان سبباً في جعله معروفاً بين الأنثروبولوجيين الغربيين. والكتاب مهدى لمازريك، ويعبر فيه موزيل عن تقديره واحترامه لهذا التشجيع. لقد طبع الكتاب في براغ، وصدر تتصدره صورة لموزيل في لباس بدوي، ووصف صاحب الصورة بأنه شيخ من الروالة اسمه موسى. ويعلق جورج سارتون، محرر مجلة Isis وهو يقدم مراجعة للكتاب، بأن هذا الشيخ موسى الكثير العلم لا بد وأنه قد ساعد موزيل في بحوثه واستطلاعاته. ولقد ساعد الشيخ بالفعل، فقد كان موسى هو موزيل نفسه.

كان موزيل ومازريك على اختلاف كلي فيما يتعلق بجهود كل واحد منهما وقت الحرب، ولكن ورغم كل ذلك فإن ما يجمعهما كان أكبر مما يفرقهما، ومن المعقول جداً أن يتصور أنهما كانا يكنان نوعاً من التفهم القوي إزاء بعضهما. فكلاهما كان فلاحاً مورافياً من حيث الخلفية، وترعرع كلاهما من هذه الخلفية ليصبح أستاذاً جامعياً. وكلاهما انجذب في البداية نحو فيينا. وكلاهما كان صلباً وشجاعاً، فهما كانا من الهانكس، من سكان منطقة سهل الهان في جنوب مورافيا، وعاش كلاهما بحسب الشهرة الهانكية في العناد والعمل الدؤوب. وكما يقول التعبير الشعبي يقف الهانك على أقدامهم ثابتين (Hanaci drzte se) وهي مقولة صادقة حتى على ما عرف عن جيش K.und.K. ومن المقبول الاعتقاد بأن المنطق الذي قاد كل واحد منهما للمسار الذي اختاره في الحرب كان واحداً: فكل واحد منهما كان تطهرياً، ويملك إحساساً قوياً في العلاقة بين الوحدانية والأخلاق الصادقة. وقد جرب كل واحد منهما جذب قوىً نحو دين مباشر ليس فيه وسطاء، حيث يفرض الإله الالتزام الأخلاقي على الفرد بدون مساعدة الطقوس أو الشعائر أو

الوسطاء (الشفعاء). ولقد قاد هذا الموقف مازريك إلى مغادرة أو ترك الكنيسة الكاثوليكية، وفي النهاية إلى معارضة الإمبراطورية التي ارتبطت بها (إضافة إلى حقيقة أنه آنذاك كان الارتباط أقل قوة)، وأن ينظر وبشكل مثالي إلى الهسيين Hussites، الذين وبدون إلغاء طبقة رجال الدين أو الطقوس، أصروا على الأقل على المساواة بين المؤمنين سواء أكانوا من عامة الجمهور أم من رجال الدين ـ في الشعائر الدينية. وهذا ما جعلهم يعرفون بالأصوليين. وقاد كل هذا مازريك إلى تبني فلسفة للتاريخ ربطت سلطوية الكنيسة بسلطة الإمبراطورية، ووجد معنى التاريخ في تجاوز كليهما، وهو ما أحب أن يراه كنوع من إحياء التطلع الهسويتي. وقد ارتدّ مازريك ضد الهابسبورغ متأخراً في حياته، بعد تردد وفي ظروف استثنائية جداً: وهناك أسباب جيدة للاعتقاد أن فلسفة التاريخ العامة التي تبنّاها ـ أي التاريخ بوصفه تقدماً من الدول والكنائس التسلطية إلى الدول والكنائس الليبرالية الديمقراطية ـ إنما كان جزءًا من عملية ترشيد للقرار السياسي، تم التوصل إليها بتكافؤ الأضداد؛ وهو قرار لم يكن موضع قبول معظم أبناء وطنه آنذاك.

ولقد كانت لموزيل وبشكل واضح المشاعر نفسها عن الدين، إلا أنها قادته، لاهوتياً وسياسياً في اتجاه مخالف تماماً. فلقد جعل ألواس البدو وليس الهوسيت المثال النموذجي. إذ ظنّ أنه وجد فيهم تلك العلاقة المباشرة والنزعة الأخلاقية، بدلاً من النزعة الطقوسية التي يثمنها البروتستانت. وكانت وجهة النظر القومية أو المازريكية للتشيك هي في قمع البروتستانت، وقمع المارانو أنصار الإصلاح: لقد دفعت الأمة، بحسب تعبير فريدريك شيلر، إلى الصلاة الجماعية بالقوة. وإذا كان هذا التفسير ينطبق على موزيل، فإنه إذن قد وجد طريقة مبتكرة في التسامي على مشاعر إخوته المورافيين: كعالم كاثوليكي، درس وأحب البدو. والأسباب التي دفعته إلى مدح البدو لا يمكن أن تتجاوز المعضلات الدينية التي كانت قد قسمت أوروبا:

«الشعائر الدينية مختلفة بين البدو وسكان الحضر، فليس عند البدو أماكن مقدسة أو صور دينية أو رجال دين بل ولا حتى طقوس. وهم

يشبهون، في دينهم وبشكل قوي آباء الكنيسة الأولى. ولقد سألت أخي نوري الشعلان، أمير الروالة، في محادثة أخوية عن: كيف لا يوجد عندكم أماكن مخصصة لعبادة الله؟! فأجاب: يا موسى! لا يمكن أن تكون لنا مثل هذه الأماكن... إذ قد تمر خمس سنوات أو أكثر قبل أن نعود فنخيم في نفس المكان.. وأليس الله موجوداً في كل مكان؟ نحن نصلي له في أماكن أجنبية ونعبده بدون أن يكون ذلك في أماكن مقدسة أو معبد ما.

فسألته: ألا توجد لديكم صورة أو شيء يمكن أن يمثل الإله؟

فأجاب: «لا يوجد لدينا شيءٌ من هذا البتة. وكما ذكرت أنت لي الإله هو روح، فكيف بالله عليك يمكن لأحد أن يمثل الروح؟

فسألته: ألا يوجد وسطاء بينكم وبين الإله؟

فأجاب: الإله أبي وأنا ابنه، فهل هناك حاجة لوسيط بين الأب وابنه؟»

إن هذا الشيخ البدوي، إن صح أن ما ذكر سرد دقيق لمشاعره، سيكون بالضرورة عضواً مثالياً في معشر الأخوة المورافي. ولقد ورد هذا الوصف لمحادثة جرت بين موزيل وراعيه الأساسي وأخيه الشيخ نوري الشعلان، أمير الروالة في عمل أنجزه موزيل بين أعماله المتأخرة بعنوان «من عالم الإسلام»[1] ـ وهو الكتاب الذي كان يعمل عليه عندما توفي، والذي لم ينشر أو يترجم قط. وقد نشرت شذرات، من نص المحادثة التي أشرنا إليها كجزء من كتاب تعريفي (Catalogue) بالتشيكية بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على ولادة موزيل عام 1968 في مورافيا. والمشاعر التي تظهر كما لو أنها مشاعر بروتستانتية، والمعارضة للشفعاء أو الوسطاء، والمعارضة للطقوسية والرسومات والأيقونات الدينية واضحة جلية. ويظهر أن البدو الرحل، سواء في عهود الكتاب المقدس أو في زمن الآباء الأوائل المعاصرين، هم من ساروا على الطريق الصحيح للدين. ومن المثير أن نتأمل أنه كان هناك ثلاثة

(1) Ze Suetz Islam.

أشخاص من المورافيين الجنوبيين، أثناء وبعد نهاية القرن الماضي، تأملوا وفكروا في موضوع الوحدانية والأخلاق، وهم بحسب ترتيب أعمارهم: توماس وسيغموند وألواس. ولقد قاد توماس تأمله إلى تبني نظرية في التاريخ تفترض تحولاً علمانياً من الدول والكنائس التسلطية إلى الدول والكنائس الليبرالية، ودفعه تبنيه لهذه النظرية إلى ترك الكنيسة وتطوير فرقة الهسوتيين المثالية. أما سيغموند فرويد فإنه ظنّ أنه وجد أصول الوحدانية في مكائد البلاط المصري وفي النزعة التطهرية، وذلك في تقبل المضطهدين النزعة الوحدانية ورفض البلاط لها. بينما بقي ألواس موزيل على مثاليته للبدو الذين حولهم إلى نوع من البروتستانت الأنقياء المخلصين.

يدعي فايغل أن موزيل كان معادياً للطموحات السياسية للصهيونية، ليس في الواقع انطلاقاً من عداءٍ للسامية، وإنما انطلاقاً من اهتمام بـ تبعات هذه الأهداف وما يترتب عليها على السكان المحليين. ويقدم باور أدلةً على ذلك، ويظهر أن الحالة أكثر تعقيداً مما يبدو. ولقد كتب ماكس برود M. Brod لموزيل عن هذا الأمر أثناء ما كان يقوم به مازريك من تحريض، لكن لسوء الحظ لم يكتب لهذا الجواب ـ على ما يظهر ـ البقاء، رغم أننا نملك نص مقالة لموزيل صدرت في جريدة «صحافة براغ» (Prager Presse) الصادرة في 24 سبتمبر 1921، بمناسبة انعقاد المؤتمر الصهيوني في كارلسباد قبيل شهر من تاريخه. وهو يؤكد في مقالته تلك، أن المؤتمر يعد «ساعة عظيمة» للشعب اليهودي، وأنها تهمه بوصفه مستشرقاً وإنساناً، وأنه متعاطف مع تطلعات الروح اليهودية منذ 1895. صحيح أنه واضح في تناوله للمشاكل: فهو يحذر اليهود أنه لا يوجد سوى أعداء لهم في فلسطين (سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين وسواء كانوا من العرب أو الإنجليز أو الفرنسيين). ولقد طالب وبشكل متكرر أن على الصهاينة أن يتحدوا إذا ما أرادوا أن يحققوا في النهاية «حياة قومية حرة وكاملة في وطنهم الأم» (Heimat).

أما النصيحة التي يقدمها للصهاينة في مقال آخر (في صحيفة أوروبا الجديدة The New Europe الصادرة في 3 يونيه 1920) فقد كانت مثيرة. فهو

ينصح الصهاينة أن لا يفكروا في تأسيس جامعات، وإنما ينبغي عليهم أن يعملوا أولاً على تأسيس مدارس أساسية. وهنا يتكلم التشيكي والحق معه: إذ كان السائد أن الاستراتيجية الصحيحة للإحياء القومي تتمثل في التركيز على التعليم الابتدائي الذي هو أساس كل شيء آخر. وهنا بإمكاننا أن نتخيل موزيل يردّد الشعار المازوريكي ـ اشتغلوا على التفاصيل وعلى الأساس ببطء وبشكل تفصيلي وبصبر.

وهناك نصيحة أخرى قدمها موزيل المستشرق وليس التشيكي: فهو لا يرى أن عملية إحياء اللغة العبرية فكرة جيدة. ويرى أن الأفضل تكرار تجربة ما بعد السبي البابلي. فمن عادوا من ذلك الأسر استخدموا العبرية للأمور الدينية والآرامية للحياة اليومية. والعربية ليست بأبعد من الآرامية بالنسبة للعبرية، ولهذا لماذا لا تحترم سابقة ما بعد السبْي، وأن نكسب بذلك ميزة الاتصال السهل مع الجيران؟ ولا يرى موزيل أنه من المحتمل أن ينخرط المستعمرون الأوروبيون في العمل الزراعي في فلسطين: فالمكان حار جداً. وينصح بدلاً من ذلك بقيام دراسة دقيقة للمجتمعات اليهودية الزراعية المحلية التي بقيت منسية ولزمن طويل في قرى العراق، انطلاقاً من فكرة استخدام النتائج لتعليم المهاجرين. «فقوة الأمة هي في فلاحيها». ويضيف أن ذلك سيساعد أيضاً تداخل المستعمرين مع اليهود السفارديين (الشرقيين) من الأهالي وبذلك يعمق التفاهم بين التقدم والأرثوذكسية.

ولم يُثر الجانب العاطفي من حياة موزيل، على الأقل إلى الآن، أو يبرز مزيد من التساؤل كما كان الحال في حياة لورانس. ويذكر **باور** شائعة قوية تتردد بين المستشرقين أن موزيل تزوج سراً بامرأة بدوية، لكنه يرى أن هذه الشائعة ربما عادت إلى حادثة ذكرها موزيل نفسه، وهي أن شيخاً ما قدم له ابنته ليتزوج منها وأن يأخذ معها ما ورثته، وذلك لأن الله لم يرزقه بابن ذكر. وهذه قصة غريبة، كذلك غريب أن يورد موزيل هذه القصة دون تعليق، ذلك لأن العرف يجعل من الصعب على أب أن يتجاهل أهمية نَسَب ودين من يمكن أن يتزوج ابنته، أو يحصل على ثروته. وفي ظل الظروف العادية، ربما

كان من الصعب على أي شيخ أن يقوم بذلك دون أن يكون موضوع محاسبة من جماعته. بل إن موزيل نفسه يوضح وبشكل مؤكد وواضح هذه المسألة من العُرف العربي في كتابه (الذي نشره بالإنجليزية) عن الرواية.

وفي أواخر عمره، يظهر أن أقوى علاقة لموزيل كانت مع سكرتيرته الآنسة آنا بلخوفا، والتي كانت مخلصة جداً لعمله. وكما تذكر هي نفسها، ولكن دون إشارة فكاهية منها، أنه قد أبدى لها ملاحظاً «أعرف كيف أعمل قبل أن تأتي إلي، لكنك كنت أنت من علمني كيف أستغرق أكثر في عملي». وتذكر ملاحظة في غاية الأهمية: وهي أنها لاحظت في سنواته الأخيرة (توفي عام 1944)، أنه رغم اهتمامه بالسياسة في العالم إلا أنه لم «يكن يتوقع التطورات التي آلت إليها الأمور». هل كانت هذه إشارة حذرة عاقلة عن خط سياسي لم يعد مقبولاً عندما كتبت تلك السطور؟ وربما كان هناك ما هو أكثر يمكن أن نجده هنا. وقد نضيف هنا، أنه بالرغم من أن موزيل كان طهورياً في معظم جوانب حياته ـ وبخ أحد تلاميذه على استمتاعه بالاستحمام مرةً في الأسبوع ـ فهو يحب أن يشرب النبيذ بما في ذلك الشمبانيا حتى في الصحراء، وكان على ما يظهر خبيراً في ذلك.

وهكذا فإن بإمكاننا القول إن موزيل يشكل حالة معقدة متناقضة وصعبة لمن يلعنون كافة أو كل الملاحظين الغربيين للشرق، على أساس أنهم إنما كانوا مدفوعين بحاجة سوء التقديم أو الرغبة في السيطرة. ففي أي جانب كان في هذا الصراع المانوي/الأزلي؟ فهو كفلاح تشيكي ـ مورافي لم يكن من عرق إمبريالي. فهل كان مستعمراً أم مستعمراً؟ لقد خدم إمبراطورية كانت أيضاً حليفة لإمبراطورية آسيوية، ولم تكن عدوتها، ولقد حاولت الإمبراطوريتان، أن تدعم إحداهما الأخرى لكنهما فشلتا معاً. وكانت كل من هاتين الإمبراطوريتين عتيقة وغير قومية. ولم تكن الإمبراطورية الآسيوية، محل حديثنا، رحيمةً مع رعاياها الآسيويين أيضاً. ولقد كان متحمساً، حقاً، أن يدعم تأثير إمبراطورية الهابسبورغ في الشرق الأوسط، وكان يأمل أن يؤمن نوعاً من الحماية للسكان الكاثوليك المحليين. ولن يمانع في قيام دولة عربية في الجزيرة العربية تكون

صديقة «لنا» وهو في هذا كان يشبه لورانس.

لكن في النهاية، فيما يتناول الأمر الهام الذي يتعلق بأين تقع الحقيقة وأين يقع شرف اكتشافها، لم يكن أوروبياً ـ شوفينياً على الإطلاق، بل كان على العكس من ذلك تماماً. فبالنسبة لموزيل، كانت البصيرة الأعظم هي ما قام به الساميون وليس الإغريق:

> «لقد قاد تابوت العهد القديم إلى مجاهل الصحراء.. وكنت شغوفاً بالدخول إلى الحياة النفسية للساميين الحقيقيين، تلك العناصر التي لم تختلط بعناصر أجنبية، ولم تقع تحت سيطرة أجنبية، ولذا لم يكونوا قط تحت تأثير أي تنوير خارجي... إن معرفة النشاط النفسي للمسلمين الحقيقيين في وطنهم مفيدة جداً لي، إذ ستظهر لي أسباب لماذا كان الساميون وحدهم، من نزلت عليهم الأديان التوحيدية الثلاث في العالم. ولماذا حل الساميون معضلات، لم تخطر على بال المفكرين الإغريق العظماء؟ ولماذا كان الساميون وحدهم الذين لم يبدعوا مدارس فلسفية، هم من أغنوا العالم القديم بتبصرات، حتى بالنسبة لنا، تعد المصدر لكل حدس جديد؟ لا أستطيع الإجابة على هذه الأسئلة في غير صحراء الجزيرة العربية».

إذاً لقد اكتشف الساميون الحقيقة المهمة، سواء في العصور القديمة أو الحديثة ولقد هبطت عليهم بسبب حياتهم في الصحراء، وليس بسبب نزوة جماعةٍ ما. فهي حقيقة سرمدية، تنبع من طريقة أو أسلوب حياة وليست من مصدر ما.

ولقد تساءلت مقالة تشيكية يتيمة ما إذا كان من المعقول أن البروفسور موزيل كان مسلماً؟ وربما كان السؤال الصحيح الذي كان ينبغي طرحه ـ هل كان موزيل نوعاً من الموحدين الأصليين؟ ربما كان من الموحدين غير المتعصبين لفرقة دينية ما؟ لقد كان يظن أن البدو موحدون وإن كانوا مسلمين اسمياً، وذلك من خلال ما تعلمه عن دينهم الرسمي خلال الفترة التي كان

يدرسهم فيها. لكنهم كانوا قد تحولوا، بحسب زعمه، ليس عن نوعٍ معين من الشرك، وإنما من نوع من الوحدانية الطبيعية الخالدة (الخفية). ولقد وجد صعوبة ما في إيمانهم بالجن وكان ربما سيقول ـ وإن لم يعبر صراحة بحسب علمي ـ أن فكرة الجاهلية هي إسقاط لا مبرر له من المسلمين الحضر على البدو، الذين في حالتهم الطبيعية لم يعتنقوها فقط. والحقيقة يجب أن يتم اكتشافها في النقاء والبساطة والوحدانية، وكل هذه ظهرت في البرية. ولقد قال ابن خلدون إن الصحراء تولد الفضيلة، وكان موزيل يرى أنها تدفع إلى الصدق/الحقيقة. فالوحدة المطلقة تدفع للصفاء والطهورية وإدراك الحقائق الخالدة. فكيف يمكن لرؤية تعتمد على شكل خاص من الحياة أن تكون صادقة كونياً؟ لا يظهر أنه قد سعى لتتبع الإجابة على هذا السؤال. ربما كانت الفضيلة وحدها تجيء بالحقيقة، وأنه ينبغي علينا جميعاً أن نبحث عن الفضيلة في البساطة. في أيامه الأخيرة في مورافيا، كان أسلوب حياته بكل تأكيد شعبياً. فلقد كان يرعى وبهمة أشجار الفواكه العديدة التي كانت له (ولقد زرع أكثر من 5000 شجرة)، وكان يعمل على استخدام أمثل للأرض عندما كان منخرطاً في العمل الفكري، فهل كان عمله في الزراعة نوعاً من التعويض أو العزاء؟

لقد كان، حينما كان بين العرب، إنساناً شعبياً يعمل لمصلحة الآخرين، لكنه لم يكن كالآخرين في هذه الفئة، إذ كان يبحث عن النقاء وليس التراث/التقاليد. ولا يمكننا أن نشك بأن هذا المورافي المتطهر كان راغباً في أن يسيء إلى سمعة أو يتسلط على أو يحتقر، أولئك الذين كان شغوفاً جداً أن يتعلم من روحهم وأسلوب حياتهم.